كيف يستمرّ وهج القصيدة
خليل حاوي

أ.د. هاشم الايوبي

عندما تبعد مَسافة الزمن بينك وبين شاعر كانت تجمعك به صداقة، وبشعره انخطاف، تصبح قراءتك لشعره، ربما، أكثر صفاءً، وأكثر تقديراً، إذا ما رأيت قراءتك له ما زالت مسكونة بالدهشة والحياة.

هذا شأني – وشأننا – مع خليل حاوي بعد خمسة وثلاثين عاماً على رحيله.

مصدر هذه الدهشة والانجذاب المستمرّ هو " الشعريّة " عند خليل حاوي. وقد يتعجب البعض أن نتكلم حول الشعرية عند شاعر. وهل كلُّ من نظم شعراً صار شاعراً ؟

لن أدخل في تفاصيل مفهوم الشعرية، ولكن توهجها هو الذي يبقي هذا الانجذاب المستمرّ.

وسأتناول بعض مظاهر هذه الشعرية التي تجعل دهشتنا لا تنقطع في شعر خليل حاوي

الثنائيّة الصادمة

وأكتفي ببعض العناوين بما للعنوان من انعكاس على ما يليه.

١- بيادر الجوع

كيف لبيدر هو رمز الحنطة ونقيض الجوع. يجمع الفلاح فوقه غلة الموسم لتكفيه طِوال العام ويطعم أطفاله ويبعد عنهم شبح الجوع.

ثمّ تأتي العصافير تلتقط ما أبقاه غربال الفلاّح لتقتات وتطعم فراخها. كيف لهذا البيدرأن يتحول بيدرَ جوع لا بيدر خير واكتفاء ؟ بهذه الثنائية الصادمة في تناقضها يُبقي خليل قارئه متيقظاً يطلّ على هواجس الشاعر.

والشيء نفسه مع :(نهر الرماد)، والجمع بين الماء رمز الحياة والرماد إشارة الموت. البداية والنهاية، بداية للنهاية ؟ ماذا يريد خليل ؟ ربما يترك لنا أن نشاركه هذا القلق

وفي (الناي والريح)، كيف لهذا الناي الحالم أن يرافق هذه الرياح العاصفة ؟ ألا يقتل صفيرها بحّة الناي ؟

وكيف للرعد الذي يُرعب بقصفه عناصر الطبيعة أن تراه جريحاً، وقد تشعر بالشفقة عليه ؟

هذه الثنائية المثيرة لتحريك الهواجس والأفكار لا تنحصر في العناوين بل نراها تلتمع في الكثير من قصائد حاوي.

٢- السير بين الخطوة والمدى

بيني وبين الباب أقلام ومحبرة
صدى متأفف
كُوم من الورق العتيق
همّ العبور
وخطوة أو خطوتان
إلى يقين الباب، ثمّ إلى الطريق

لك أن تتخيّل طالباً يدرس في الغربة، يحضّر أطروحة، وهو غارق بين الأوراق والأقلام يسكنه ضجر الغربة وهمّ النجاح وليس بينه وبين الباب في هذه الغرفة الصغيرة سوى خطوة أو خطوتين لينفتح الباب ويخرج إلى الحيّز الأوسع.

ولك أن تسرح في المدى فترى طالب علم يقيني يبحث عن الحقيقة بين الكلمات والكتب ويحمل همّ العبور إلى هذه الحقيقة بعصبية وتوتر. كيف لا وليس بينه وبين ذلك سوى خطوات فينفتح باب اليقين ويخرج إلى طريق يسير عليه باطمئنان.

كلمات قريبة كلّ القرب وهي في الواقع مفاتيح لدروب كثيرة في الفلسفة والتصوف : الباب – العبور --اليقين -- الأقلام والمحبرة --الطريق بكل ما يحمل الطريق من دلالات.

هذا هو خليل الذي لا يريد دعابة بديعية عن طريق الكناية بل يريد بناءً متكاملاً من طبقتين متوازيتين يدفع لمن يشاء بالأولى القريبة ويدفع بمن يشاء إلى الثانية المحلّقة بعيداً.

أليس بمثل هذه الشعرية يظلّ الشعر

متوهّجاً ؟

الحركة الفنيّة نفسها يطوّعها خليل حاوي في (الناي) :

ابني، وقاه الله، كنز أبيه
جسر البيت، يحمل همّنا، همّاً ثقيل
العام خلف الباب يا بنتي، يعود
غداً يعود إليك. بعضَ الصبر
سوف يعود والله الكفيل.

أهي أمّ – وقد تكون أمّ خليل – تنتظر ابنها المسافر الذي يحمل همّها كما تحمل همّه، وتهدّئ من شوق ابنتها بأن الوقت سيمر سريعاً وسترينه هنا والله الكفيل ؟

أم هو الأرض التي تنتظر المطر ؟

أم الأمّة التي تنتظر عودة البطل (وسيعبّر خليل عن هذا الحلم في (رسالة الغفران من صالح إلى ثمود) وفي (عودة إللى سدوم)

كلّ هذا يرد في ذهنك وأنت تسير بين الطبقتين القريبة والبعيدة اللتين رصفهما خليل فنيّاً بكل حذق ومهارة.

٣ – كنوز الكلمات

والشاعر الأصيل هو الذي يصهر ما في خزائنه من ثقافات وتجارب ورؤى ليصوغها تعابير تنبض بالحركة والحياة.

وشاعر مثل خليل حاوي تحتشد في ذاكرته الواعية وغير الواعية ثقافات بكل مفاتيحها وألفاظها : تاريخ، فلسفة، دين، تراث، أساطير، شعر، ملاحم ، وفي مخيلته مشاهد القرية والمدينة والطبيعة بكهوفها وشطآنها ونعنعها البريّ ورمال صحرائها... عليها تنبني قصائده في غنى مترام وتآلف مدهش.

حتى التعابير اليومية في قصائده تلبس وشاح الشعر دون أن تتخلى عن بساطتها الأليفة. جسر البيت، العام خلف الباب، والله الكفيل، صفحة الأخبار كم تجترّ ما فيها، تفلّيها ن تعيد...عيد الحصاد، شمس الحصيد، كلما ضوّأ في القرية مصباح جديد..

٤- طفولة الفرح

عندما يفاجئ الفرح قلب خليل يتحول طفلاً شاعراً وتبدو قصائده أهازيج ومواويل.

جارتي يا جارتي
لا تسأليني كيف عاد
عاد لي من غربة الموت الحبيب
حجر الدار يغنّي
وتغنّي عتبات الدار والخمر
تغنّي في الجرار
وستار الحزن يخضرّ
ويخضرّ الجدار

تحتار أي قبس من الشعرية يفيض عليك : الزغرودة أم الموسيقى أم نداء الجارة لجارتها أم حجر الدار يغني. إنه قبس متكامل لا نبرئه من طبقة عميقة الأغوار هلل لها الشاعر مع ظهور أمل في سماء العرب يهفو له الشاعر وينتظره بعد موات.

٥- مرارة الغضب

لا يدع خليل مجالاً حتى لحالات الغضب أن تتفلت من فضاء الشعريّة.

ففي غمرة الأسى يختار صيغة الاستفهام التي تحمل في البلاغة العربية أكثر من أربع عشرة دلالة منها دلالة الاستنكار التي يُفرغ فيها ما يجيش في صدره.

ما لوجه الله صحراء
ما تُرى تحكي الرياح
عن رياح فاتها الثأر
ما لبيت القدس، بيت الله
معراج النجوم
ماله لم يحمه سيف ملاك
ما حُماة البيت والعار يغنّي
ما لثقل العار
هل حُمّلتُه وحدي
ما لأمّ شيّعت ألف مسيح
ما لها الأمّ الحزينة
ما وحوش تدّعي الميزان والعرش
ما التماعُ الناب والحربة
في وجهي المدمّى
ما جدار الصمت في وجه إله

يطوّع خليل مهاراته اللغوية في التعبير عن غضب لم ير انسب من تساؤلات الاستنكار مشفوعة بسلبية فعل " ليس " لتحقيق ذلك.

٦- زهو الحلم

عند خليل لا انفكاك بين الحلم والقصيدة والشاعر. عندما هوى الحلم هوت القصيدة فهوى الشاعر.

في زهوة من زهوات الحلم نرى خليلاً في حالة نشوة وهو يعلم أن ما يحلم به ليس يسيراً ولكنه لا يريد أن يفقد هذه الزهوة، متكئاً على مجد من التاريخ زاخر بالبطولة حتى المعجزات :

أتُرى يولد من حبّي لأطفالي
وحبي للحياة
فارس يمتشق البرق على الغول
على التنين، ماذا هل تعود المعجزات ؟
بدويّ ضرب القيصر بالفرس
وطفل ناصريّ وحفاة
روّضوا الوحش بروما، سحّبوا

الأنياب من فكّ الطغاة
ربّ ماذا
ربٌّ ماذا
هل تعود المعجزات ؟

وفي "رسالة الغفران من صالح إلى ثمود" كان هاجس العبور يسيطر من جديد أمام عيني خليل حاوي، ليس العبور من الشرق القديم إلى الشرق الجديد وحسب ، بل عبور القناة والجولان لاسترداد الأرض والكرامة وتصحيح مسار التاريخ :

بكلّ زهو يخاطب البطل – الحلم :

وتباركت رحِم التي ولدت على ظهر الخيول
ولدت وما برحت بتول
بطلاً يروّي سيفَه
لهبُ الشهاب...
وتبارك البطل المغامر
يشتدّ في طلب الصراع المرّ
وتبارك البطل المغامرْ
ما بين حُرّاس المشاعل في ذرى التاريخ
ليس له شبيه
بطلٌ يخلّي النيّرين
لمن وهبْ
وتبلغ زهوة الحلم مداها مضمّخة بعبق التاريخ والمجد والقداسة :
عاد الأمين مكرّماً تحدو به
خيلٌ كريمه
يمناه تخلع نعته
نعتاً على أرضٍ مكرّمة
على بلد أمينٍ
ومتاهة الصحراء
ما عصمت غريمَه

لقد أدرك شاعر ألمانيا الكبير غوته ما لزهوة الحلم هذه وعنفوانه من قيمة فنيّة في الشعر، وكان قد قرأ الشعر الجاهلي ودعا صديقه الشاعر المستشرق فريديك روكرت إلى ترجمته قائلاً له : إذا لم تدركوا زهوة عمرو بن كلثوم في :

إذا بلغ الفطام لنا صبيّ تخرّ له الجبابر ساجدينا

فلن تذوقوا حرارة الشعر الحقيقيّ ونبضه الحيّ

أليس بهذه الثنائيات الصادمة والتنقل بين الخطوة والمدى، أليس بكنوز الكلمات وتلاوين الأسى وزهوة الحلم وفرح الطفولة يبقى للشعر وهجه ويبقى للشاعر مجده؟